إبطال العناد في أفعال العباد

تأليف

إمام المتكلمين وقدوة العارفين عالم عصره ومفخرة دهره

القاضي العلامة إسحاق بن محمد بن قاسم العبدي

(١٠٥٠ هـ - ١١١٥هـ)

تحقيق

حسين مقبل قيلي

منشورات

مكتبة التراث الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

مكتبة التراث الإسلامي
الجمهورية اليمنية ـ صعدة ـ مفرق الطلح
تلفون: ٥١٣١٥٠ ـ ٥١٢٩٠٧

مكتبة الهدى
الجمهورية اليمنية ـ صنعاء
شارع ٢٦ سبتمبر تلفون: ٢٧٢٠٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة التحقيق]

الحمد لله الذي وهب لنا العقول، وهدانا إلى صراط مستقيم،ومكننا بالقدرة والإختيار، لإتباع الحق وتجنب الهلكة، يوم يحاسب الخلق العدل الحكيم الرؤوف الرحيم.

والصلاة والسلام، على سيدنا محمد الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الهداة الأكرمين. **وبعد** ..

فإن تراثنا الإسلامي عامة، يشتمل على كثير من المفاهيم الإسلامية، التي من شأنها تصحيح مسار الأمة الإسلامية والدفع بها نحو التكامل الإنساني، بيد أن التراث الزيدي يتميز بالنظرة الثاقبة والتوسط في الأمور، وخلع ربقة التقليد لاسيما في القضايا العقائدية. وقد يكون الوحيد الذي حث على النظر، وتحرير العقل، وتصويب المجتهد في القضايا الإجتهادية.

ونشر هذا التراث خدمة لأبناء هذه الأمة، وعطاءٌ في موضع الحاجة، لأن أبناء الإسلام في أمس الحاجة إلى التوجه نحو ثقافة إسلامية صافية.

فنحن أمة مستهدفة، تواجه العديد من التحديات التي يفرضها عليها الإستكبار العالمي بطريقة مباشرة وغير مباشرة. وتواجه تحديات موروثة وذاتية، أعدت لتلعب دورها المفرق، والمدمر على أرضنا.

وإذا كان الإسلام هو الأيديولوجية الطبيعية لأمتنا الإسلامية، والحصن الذي تحصنت به وهي تواجه التحديات التي فرضها عليها الأعداء منذ عصر الفتوحات الإسلامية إلى عصرنا هذا فلابد لنا من الوعي بعوامل التقدم الذي يصنع الأزدهار والحضارة لأمتنا الإسلامية، فأعداء الإسلام لايهدأ لهم بال، ولا يقر لهم قرار ما دام المسلمون معتزين بتراثهم وبعقيدتهم السمحة.

وللمساهمة في نشر المعارف، وتوسيع دائرة المعلومات، وإخراج التراث الإسلامي إلى ساحة التثقيف، ومتلقى الأفكار، قمت بتحقيق هذا الكتاب ونشره، سائلاً من المولى العلي القدير أن يأخذ بأيدينا إلى الخير وإلى ما فيه مصلحة الأمة الإسلامية، إنه على ما يشاء قدير.

[ترجمة المؤلف]

هو القاضي العلامة، المنشيء الفصيح، المحقق المتكلم، الرحالة المظلوم، إسحاق بن محمد بن قاسم العبدي الصعدي أحد علماء الزيدية الأفاضل.

مولده ونشأته :

ولد بصعدة سنة ١٠٥٠هـ، ونشأ في طلب العلم والمعرفة، وأخذ عن كثير من العلماء في شتى الفنون، حتى فاق أقرانه، وبرع في جميع العلوم، وأخذ عن المقبلي، وقد وجد بخطه ما لفظه: بلغت قرآءتنا في الفصول بحمد الله باب المطلق والمقيد إلى ليلة الأربعاء خامس عشر، شهر جمادي الأخرى عام مائة وألف، وهي على شيخنا العلامة ضياء الدين صالح مهدي المقبلي بمحروس، مكة المشرفة والله يمن بالتمام.

كان من العلماء الأدباء، الأخيار اشتهر بالعلم والمعرفة في بلده، وسافر إلى مكة ثم انتقل منها إلى اللُّحَيَّة أيام حسن المتوكل ولازمه بها، ثم عاد إلىمكة سنة خمس ومائة وألف، ثم عاد إلى بلده، واتصل بالإمام المهدي أحمد بن الحسين بن القاسم فعظمه، وصار من جملة وزرائه، وولي على المخاء، ثم جرى بينهما شيء، فنفاه إلى الهند، فأكرمه سلطانها إكراماً عظيماً، وطاف تلك البلاد، وأقام بها فترة ألف خلالها الإحتراس، وذلك ببندر زافوره من أرض الهند ثم عاد إلىاليمن وكانت وفاته بأبي عريش من أعمال تهامة سنة ١١١٥هـ، واتصف

بالإنصاف وشدة تمسكه بمذهب أهل البيت (ع) كما نجد ذلك جلياً في كتبه، وقد اشتهر بمؤلفاته الرائعة في علم الكلام والتي منها:

١) ***إبطال العناد في أفعال العباد***، وهو هذا الذي بين يديك، جمعه لبعض طلبة العلم الشريف بمكة المكرمة.

٢) ***الإحتراس رداً على النبراس في إبطال الأساس***، وهو عدة مجلدات، وقد قيل: إنه لم يؤلف في بابه مثله، في علوم العترة، وهذا دليل على غزارة علمه وسعة اطلاعه.

أما الأدب فقد حاز فيه النصيب الأوفر، و لم يحفظ لنا التاريخ إلا الشيء اليسير منه.

وقد أنشأ قصيدة لشيخه القاضي العلامة الحسين بن ناصر بن عبدالحفيظ طلب منه الإجازة فيها.

فقال:

هو الدهر فيه الحاذق الحر حائر	***يحكم فينا وهو في الحكم جائر***
وإن نام نابت عنه فينا نوائب	***تحاول من تفريقنا ما نحادر***
تراه إذا سائلته الرفق جامداً	***وكم شق للعشاق منه مرائر***
فكم قد قضت فينا بين مشتت	***موارد أفعال له ومصادر***
فيا أيها الدهر الخؤون ترفقا	***فقد خانني حجر وذابت محاجر***
وقفن على سفح العقيق مدامع	***فما زال يجريها على الخد ناظر***
وبعت كرى العين القريحة إذ سرت	***تروق ففي غمض العيون أتاجر***
حشاي بفن الإستعارات مولع	***وللدمع نوع الإنسجام مناظر***
وما كنت لولا أعين الحور حائراً	***ولا مدمعي لولا البدور تبادر***
رضيت النوى قسراً فأصبحت نائياً	***وكم قسرت عما تروم قساور***
حجاي على فقد الحجون معذب	***حريّ إذا ولى حراء وهو طائر***
ومن عجب أني أرى الشعر مسعداً	***لغير شعور أن جفتني المشاعر***
فيا وطني هل ما مضى فيك راجع	***وهل لفراقي عن معانيك آخر***

وهل درست تلك الربوع وأصبحت ... يوما سموم الريح فيها غوابر
نواظرنا مشتاقة منك نظرة ... تلوح لها تلك الرياض النواظر
وياعبراتي هكذا الدهر عبرة ... دعيني فكل في الحقيقة عابر
ويانفس شكواك الزمان سفاهة ... إذا لم يكن عند الحوادث ناصر
وما ناصر إلا الحسين بن ناصر ... فتى كرمت أعراقه والعناصر
ومن جده عبدالحفيظ وجده ... حفيظ لما تنسى الجدود العواثر
إمام لأنواع العلوم بصدره ... بحارُ سَفِيْنِ العلم فيها مواخرُ
وإن أباه كان للدين ناصراً ... أبيّاً إذا سام الصَّغَارَ المكابرُ
لقد كرمت أعراضهم غير أنها ... تُرَى وَهْيَ في بحر الكمال جواهرُ
يكاد يرى عقبى الأمور كأنما ... أوائل كل المشكلات أواخرُ
فلو أن كل العالمين تقاسموا ... حجاه لما أضحى على الأرض قاصر
فيا أيها الحبر الذي صار مفرداً ... وكان كما أثنت عليه المحابر
أتاك بطيء الطرس نشر ممسك ... لمدحك في كل المحافل ناشر
تفردت في كل العلوم ولم تزل ... لسائرها منك النجوم السوائر
وأحييت بالتدريس ما كان دارساً ... فمنك سعيد في العلوم وعامر
روت عنك أبكار المعالي رسائلاً ... كما ترجمت عما ابتكرت البواكر
وكنت أرى دهري بلقياك باخلاً ... وفي عدة منك الزيارة زائر
فمذ شفيت نفسي بمرآك واشتفت ... بحسن خطير الوصف منك الخواطر
تحاسد فيك الطرف والسمع مثلما ... تحاسد في الألفاظ منك الدفاتر
وإن كنت في دعوى المحبة صادقا ... وأنت الذي للعلم لاشك باقر
فكن منجداً لي إذ غدى الشوق متهما ... فما أعربت إلا لديك الضمائر
وخذ ثمرات المدح مني فإنها ... نجوم على مر الزمان زواهر
وكن لأمير المؤمنين موضحاً ... جلية امري فهر عندك ظاهر
فقد وثقت نفسي بجدواك مثلما ... قطعت بأن المشكلات غوادر

وكـن لي مجـيزاً في الروايـة مشـعراً ... بهـا لامجـيزاً بـالذي رام شـاعر
فما أنـا ممـن يجعـل الشـعر حرفـة ... وإنـي الـذي تهوى خطاه المنـابر
ودم مـابدا الإسفار في الفجـر رافعـاً ... لرايـة نـور ينتجيهـا المسـافر
ولا برحـت منـك العلـوم مواهبـاً ... تسـير بها في كـل قطـر بشـائر

وقد أجاب شيخه الحسين بن ناصر على قصيدته، بقصيدة طويلة.منها :

مبـادي علـم لم تـزل تتظـافر ... لها في سماء المكرمات مظاهر
تصورتهـا في صـورة قمريـة ... فحور معانيها حسـان قوامـر
فأذعنت تصديقاً لصدق انتمائها ... إلى رتب فيها البواهي البواهر

ومنها:

ويبدى لإسحاق العليم عمومها ... خصوصاً فللأشباه فيها نواظر
ففي يمن من مجملات علومه ... بحار خضمات طوام زواجر
تبينهـا مـن مكـة وشـعابها ... مهابط وحي للعلى ومشاعر
وحقق في التأويل آياً بواهراً ... بذهـن سـليم للأكـابر بـاهر

ومنها :

لقد ساد أرباب العلوم بهمة ... تحملها العبـدي والله نـاصر
وأبرز في علـم الكـلام دقائقـاً ... يُقِـرُّ بِهـا عدليـة وأشـاعر
وهاك الـذي أمَّلتـه من إجـازة ... تجوز بها نحو المحـامد سـائر
علا عندَها إسنادُنا في مراتب الر ... واية والإسناد للحـق عـامر

ومن شعره نصيحة لمن ترك طلب العلم لمخالفة الأستاذ في المذهب والإعتقاد: فقال رحمه الله:

يامن رأى عوجـاً في شـيخه فنـأى ... عن التعلـم واستغنى عـن الطلـب
الجهل أعـوج منـه لـو علمـت وكـم ... قد نيل من ذي اعوجاج غاية الأرب

قال الشوكاني قرأ على شيوخ عصره في جميع الفنون وبرع وفاق الأقران وصار منفرداً في جميع علومه، وقال: صاحب نفحات العنبر نشأ بصعدة وطلب العلم أيام صغره فأحرز فنونه وكتب بخطه الحسن وصنف التصانيف المفيدة خصوصاً في علم العقيدة. انتهى.

[عملي في التحقيق]

قابلت النسخ وصححتها وأثبت ما اختلف في الهامش. قطعت النص إلى فقرات، والفقرات إلى جمل، مستخدماً علامات الترقيم المتعارف عليها حالياً أما الإختلاف الذي اتضح لي أنه محض سهو من الناسخ كبعض الأخطاء الإملائية والنحوية والسهو في الآيات فلم أُثبته.

خرجت الآيات القرآنية وكذلك الأحاديث النبوية.

ترجمت لمعظم الأعلام بتراجم مختصرة. كما حاولت أن أجعل للمباحث عناوين تسهيلاً على الباحثين وجعلتها بين أقواس الزيادة.

النسخ التي أعتمدت عليها:-

الأولى: من مكتبة السيد العلامة محمد عبدالعظيم الهادي كتب في آخرها: فرغت من زبر هذه النسخة الجليلة ضحوة يوم الجمعة شهر شعبان/ سنة ١٢٧٣هـ، نقلاً من نسخة المؤلف رحمه الله وكتب / عبدالرحمن بن أحمد بن علي يحيى مشحم. ورمزت لها بالرمز (ب).

الثانية : نسخة أصل بخط ردئ، وهي من خزانة السيد العلامة عبدالرحمن الدولة، كتب في آخرها كان الفراغ من تمام رقم هذه الرسالة النافعة عصر يوم الأحد ٤/ شهر رمضان/ سنة ١٣٢٤هـ .

في مسجد الصنجاء الصغير برحبان صعده، بقلم الراجي عفو ربه ومغفرته إسحاق بن علي بن عبدالله بن إسماعيل بن علي بن قاسم بن المتوكل على الله علي بن أحمد بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد رضوان الله عليهم.. رمزت لها بـ (١).

ولا أدعي أنني قد جئت بما لم تستطعه الأوائل ولكن حسبي أنني قد بذلت طاقتي فإن وفقت فذلك فضل من الله، وإن يكن غير ذلك، فأرجو ممن وجد خللاً أن يصلحه وليدع لي بالتوفيق وليعذرني، والله نسأل أن يغفر لنا ولسائر المؤمنين والمؤمنات وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجه الكريم وأن يتقبل منا إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم.

حسين مقبل قيلي

صعدة ٢١/ ١/ سنة ١٤١٩هـ

الموافق ١٦/٥/١٩٩٨ م.

صورة للصفحة الأولى من نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على
محمد وآله وصحبه أجمعين. حمداً لك يا من جعل التمكين
من الخير والشر حجة يعترف بها الجاحدون
يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس
ما عملت وهم لا يظلمون، تقدست عن القبيح إرادة و
فعلاً وتنزهت عن الظلم والجور حكمة وعدلاً
فكيف تفعل ما نسبت عنه ثم تعاقب عليه كما قال
المبطلون؟ أم كيف ينسبون إليك قبيح ما كانوا يفعلون
ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون؟ والصلوة
والسلام على رسولك محمد البشير النذير الصادع
بظاهر قولك الحق، اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير،
وعلى آله وأصحابه الذين رفعوا من شريعتك منارا
وما ارتابوا في معنى تنزيلك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر
إنا أعتدنا للظالمين نارا، أما بعد فقد تكرر
سؤال بعض من هماعة يريدون الارشاد في إيضاح
مسئلة أفعال العباد على وجه لا يحتاج ناظره إلى
كمال الاستعداد إذ كان الموجود من الكلام في كتب
الاعتزال وفي كتب القائلين بخلق الافعال غير
خارج عن طرفي الافراط والتفريط أو المعانطة و
التغليط بحيث يتيه فيه الناظر ولا يكتفي بضياءه
الفاضل فضلاً عن القاصر وكان بعد الخا

صورة للصفحة الثانية من نسخة (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

وصلى الله وسلم على محمد وآله خير آل، حمداً لك يا من جعل التمكين من الخير، والشر حجة يعترف بها الجاحدون ﴿**يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفسٍ ما عملت وهم لا يظلمون**﴾[1]، تقدست عن القبيح إرادةً وفعلاً، وتنزهت عن الظلم والجور حكمة وعدلاً، فكيف تفعل ما نهيتَ عنه، ثم تعاقب عليه كما قال المبطلون؟ أم كيف ينسبون إليك قبيح ما كانوا يفعلون؟ ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون.

والصلاة والسلام على رسولك محمدٍ البشير النذير، الصادع بنظائر قولك الحق ﴿**اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير**﴾[2]، وعلى آله وأصحابه الذين رفعوا من شريعتك مناراً، وما ارتابوا في معنى تنزيلك : ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً**﴾[3].

أما بعد، فقد تكرر سؤالي بمكة من جماعة يريدون الإرشاد في[4] إيضاح مسألة أفعال العباد، على وجه لا يحتاج ناظره إلى كمال الإستعداد، إذ كان الموجود من الكلام في كتب الاعتزال، وفي كتب القائلين بخلق الأفعال، غير خارج عن طرفي الإفراط، والتفريط، والمغالطة والتغليط، بحيث يتيه فيه الناظر، ولا يكتفي بقصاراه الفاضل فضلاً عن القاصر. وكان يمنعني عن إجابة هذا السؤال اشتغال

---

(١) ـ النحل: ١١١.

(٢) ـ فصلت: ٤٠.

(٣) ـ الكهف: ٢٩.

(٤) ـ في (أ): مسألة أفعال.

خاطري بالإشغال، وما أراه من كثرة الأهواء والأهوال، مع قصدي أن أحرر جميع مسائل الخلاف، وأقرر[1] دلائل الأسلاف في سِفرٍ مُسفر مفيد يشتمل على ما ذكره المتسمون بأهل السنة، وما حرره المتصفون بالعدل والتوحيد.

ثم رأيت تقديم هذه العجالة وخصوص هذه المقالة بإفرادها في رسالة، ووشحت معاطفها بما يروم ذو الانتقاء والانتقاد، ورشحت سوالفها بما يقوم بمراد المرتاب والمرتاد، مما ربما يحتاج إلى كمال الإستعداد، حتى تكون للقاصر والفاضل، والمناظر والمناضل. وسميته[2] ((بإبطال العناد في أفعال العباد.؟))

[مسألة في أفعال العباد]

فأقول: اعلم أن الخلاف لا يتحقق في مسألة أفعال العباد إلا بين القائلين بالاختيار، وبين القائلين بالجبر والإضطرار، أما من زعموا التوسط بين القولين بإثبات أمر لا تحقق له يسمونه كسباً، وهو حقيق بأن يسمى كذباً، فإنما خادعوا به عقولهم، وعقول الضعفاء من أتباعهم، وهم بين الفرقتين كما قيل: مثل النعامة إن قيل: احملي دخلت في الطير، أو طيرت كانت من الإبل، ورجوعهم في الحقيقة إلى الجبرية كما هو مقتضى عباراتهم الجلية، لأنهم فسروا الكسب بما يرجع إلى المحلية، أي: أن العبد محل لما يجريه الله عليه من الأفعال، ولا يجعلون الكافر هو الموجد لكفره، بل الله تعالى هو الذي أوجده وأثر فيه، وليس للعبد أثر في شيء من أفعاله، وكل حركة وسكنة من الله، فالكفر والسجود للعجل، والقول بأن الله تعالى ثالث ثلاثة، وما هو كائن وما يكون كله من الله تعالى عندهم إنما العبد محلٌ فقط كالشجرة محل لتحريك الرياح لها. والجبرية المحض لا ينفون المحليَّة بهذا الاعتبار، فقد جمع الجميع منهم نفي

---

(١) - في (أ): أقرر منع.

(٢) - في (أ): وسميته.

الاختيار، وإنما بقي في البين مغالطات، ومراوغات تستّر بها أهـل الكسب عن قوارع التشنيع منّا والتقبيح، وهم يعرفون أنه ليس تحتها معنى صحيح، كقولهم: الفعل خلقٌ لله كسب للعبد، وقولهم: لنا جزء اختياري، ونحوهما من الكلمات التي لا تنفق[1] على إنسان إلاّ من استحكمت فيه بدعتهم فتسبب للخذلان، والمحققون منهم قد عرفوا أنَّ كلامهم كلام الجبرية بعينه ومينه، ولكن لسان حالهم يقول قول من غرق قلبه في رينه.

زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

[مسألة في معنى الكسب]

وإذا أردنا أن نكشف عن بطلان الكسب قلنا لهم: ما مرادكم؟ ونستفسرهم عن معناه، فإن اعترفوا بأن العبد يبرز أشياء من أفعاله من العدم إلى الوجود بما عنده من القدرة الحادثة، وأن العبد مؤثر في نفس الإيجاد، وأن هذا هو مرادهم بالكسب فهو عين مذهبنا، والحمد لله على الإتفاق، وسواء كان مرادهم جزءًا كما يقولون بالجزء الاختياري أو غير ذلك، إذ الكلام في أن العبد استقل بالتأثير في فعله وأوجده بقدرته، وإن أنكروا تأثير العبد في فعله وادعوا عدم قدرته على إيجاد شيء من حركاته أو سكناته، لاجزءاً ولا كلاً، وأنه مجبول مقسور ليس لاختياره ولا لقدرته[2] تأثير، ولا يتوقف الفعل على قدرته الحادثة ثبوتاً، ولا انتفاء، وهذا هو اللائق بمرادهم والموافق لاعتقادهم بل هو صريح أقوالهم، ومقتضى استدلالهم، فليت شعري بماذا فارقوا الجبرية، ولم لا يدخلون في زمرتهم ويتركون المغالطة التي ليست من العلماء بمرضيَّة! فما قالوا : إلا بعين مقالهم، ولا تمسكوا إلا بأهداب ضلالهم، إنما ملأوا المجلدات بتوسيع دائرة

---

(١) - في (أ): لا يتفق عليها.

(٢) - في (أ): وقدرته.

الخلاف، والذبذبة بذكر الكسب بالتمحل والإعتساف، حتى يتوهم الغافل عن الحقيقة والمايل عن[1] الطريقة أنهم على شيء كما يليق بتحقيقهم، ويقتضيه ظن تدقيقهم، وبحكم هذه الواهمة بما يريدونه في كتبهم من أقوالهم: قال أهل الحق، قالت أهل السنة ونحو ذلك، وربما تُوهم أن الكسب توسط بين الجبر والاختيار، فنقول لهذا الإغترار: خير الأمور الوسط، حب التناهي غلط، فتزل به القدم من حيث يعتقد أنهم هم السواد الأعظم، وأنهم هم العلماء الفصحاء، وإذا ضلت العقول على علم فماذا تقول له النصحاء.

ثم نسألهم عن الأئمة الأربعة رضي الله عنهم، كيف كان مذهبهم في الكسب الذي هو من اصطلاحات الأشعري، كما هم مقرون به، فهل كان الأئمة الأربعة جبريّة أم معتزلة؟ وما قَبْل الأشعري غير هاتين الفرقتين في خصوص هذه المقالة، وكلا الفرقتين، عند الأشاعرة معدودٌ في الفرق الخارجة الخاسرة ثم كيف كان مذهب الأئمة المجتهدين؟ وجماعة المحدثين ما بين الأئمة الأربعة وبين الأشعري ومن قبل ذلك؟ فوفاة الأشعري سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، ووفاة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه سنة خمسين ومائة، ووفاة الإمام مالك رضي الله عنه سنة تسع وسبعين ومائة، ووفاة الإمام الشافعي رضي الله عنه سنة أربع ومأتين، ووفاة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه سنة إحدى وأربعين ومأتين، فيكون كسب الأشعري متأخراً هذا المقدار، فكيف حال أهل تلك الإعصار؟ وما ثم إلا الجبر والإختيار.

ويلزم الأشاعرة[2] على هذه المقالة أن الأمة المعصومة قبل الأشعرية أجمعت على ضلالة لأن كلا المذهبين عندْ الأشاعرة ضال، ولا تجد عندهم جواباً لهذا السؤال.

---

(١) - في (أ): من.

(٢) - الأشعرية: من انتسب إلى مذهب أبي الحسن علي بن أبي بشر بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي برده بن أبي موسى الأشعري. اهـ

فإن قيل: إن الأشعري لم يأتِ بشيء من عنده، إنما ترجم عن معنى قول السلف: لا جبر ولا تفويض.

قلنا: لم يورد الأشعري على إيضاح حقيقة الجبر إلا المغالطة وهو نقيض لقولهم: لا جبر ولا تفويض. ثم إن الأوائل منقسمون إلى مَنْ قَبْل ظهور بدعة القدر كالصحابة والتابعين، وهؤلاء لم يطرقهم شيء من هذه البدعة ولا خطر ببالهم إدحَاض حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه ليس للعبد أثرٌ في أفعاله، وأن الكافر ليس موجداً لكفره باستقلاله، وإلاّ لارتابوا في جملة الدين، فلم ينقل الجبر عن أحد منهم وامتثلوا نهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن التعرض للقدر، وَمَنْ بَعْدَهُمْ ممن أصابته هذه البدعة كالذين قبل عصر الأشعري بلا فاصل، ليسوا إلاّ جبرية ومعتزلة[1]، وما مرادنا بالمعتزلة إلاّ من قال بالاختيار، فتقرر أنه لم يكن لكسب الأشعري ذكرٌ في تلك الإعصار، ولا ذهب أحد إلى ما هو بمعناه، أي: كون العبد مجبوراً على فعله وله كسبٌ، لا يوصف هذا الكسب بكونه أثراً من آثار العبد، ولا أنه شيء له تحقق في نفسه يوصف بالإيجاد، وأكبر شاهد على هذا أنَّهم لما ذكروا أن الأشعري فارق أبا علي[2] الجبائي رحمه الله، لم ينقلوا كون الأشعري رجح مذهب فلان ممن يقول بالكسب، أو بما هو بمعناه قبل الأشعري، بل ذكروا أنَّه اخترع مذهب الكسب، وقال بما لم يسبقه إليه أحدٌ.

---

(١) - هم اتباع ابي حذيفة واصل بن عطاء الغزالي كان نادرة الزمان في في فصاحته وكان يغشى مجلس الحسن ثم ناظره في المنزلة بين المنزلتين والحسن ينكرها، واعتزل واصل. وتبعه عمرو بن عبيد الزاهد، فقال الحسن: ما فعلت المعتزلة. فسموا بذلك.ثم انقسموا إلى نصيرية شيخهم محمد بن الهذيل العلاف البصري، وبغدادية شيخهم أبو الحسين الخياط. ويجمع مذهبهم القول بالعدل والتوحيد. وتقديم أبي بكر في الإمامة، واختلفوا في الأفضلية، فمنهم من فضل علياً وهم غالب البغدادية، وبعض البصرية. ومنهم من فضل أبا بكر وهم غالب البصرية. اهـ

(٢) - أبو علي: هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي المتكلم. أخذ العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري، وله مقالا مشهورة في الأولين، قال الحاكم الجشمي: هو الذي سهل علم الكلام ﴿ وله شرح على مسند ابن أبي شيبة وتفسير القرآن مائة جزء، وقيل: إن جملة مصنفاته مائة ألف ورقة وخمسين ألف ورقة، الورقة نصف كراس. وقراء عليه أبو الحسن الأشعري، ولد سنة ٢٣٥ هـ. وتوفي سنة ٣٠٢هـ.

نَعَم رجوعه إلى المحلية مذهب الجبريّة، لكنهم لم يأتوا بذكر الكسب على حد ما قاله الأشعري، فبَانَ كون الكسب حادثاً ونثر الأمور محدثاتها. وأما قول السلف: لا جبر ولا تفويض، فهو عين مذهبنا كما سنحققه فيما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وإذ قَد أوضَحْنَا أن القائلين بالكسب جبريَّة، وأن الكسب اسم لا مسمى له إلا بالمحليَّة، ولهذا نجد الرازي[1] لا يتحاشا من تسميتهم جبرية لعرفانه أن كلامهم محض الجبر، وكذا[2] صرح السمرقنديُّ[3] في الصحائف. وتجدهم أيضاً يتذمرون إذا تعرض في الكشاف لذكر الجبريَّة كما يصنع سعد[4] الدين فيما جمعه عليه[5] من الحواشي، ما ذاك إلا لعلمهم أنهم هم الجبرية، وما زادوا إلاَّ المغالطة الفاضحة الواضحة الجلية.

[مسألة في بيان القدرة]

فنقول: الكلام يرجع في هذه المسألة، إلى مذهبين: مذهب الاختيار، ومذهب الجبر، فالقائلون بالاختيار، قالوا: إن العبد قادر بقدرة أعطاه الله إياها، فهو متمكن من إيجاد أفعاله، مؤثرٌ فيها باستقلاله، وتوقف حركاته وسكناته على اختياره، وعلمنا بذلك ضروريٌّ لما نجد كل أحدٍ من نفسه في حال تردده بين القيام والقعود، وأن له أن يقوم، وأن له أن يقعُد، وأن له أن يمد يده، وأن له أن يدعها، وأن له أن يتحرك، وأن له أن يسكن. ولو خيرت إنساناً أن يأخذ منك

---

(١) - هو فخر الدين محمد بن عمر الرازي طبرستاني الأصل، شافعي المذهب صاحب التصانيف المعروفة. منها التفسير الكبير ولد سنة ٥٤٥هـ وتوفي سنة ٦٠٦هـ بإيران (بمدينة هراة).

(٢) - في (أ): وكذالك.

(٣) - جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز بن مولى بني راسب (رأس الجهمية) قال الذهبي: الضال المبدع، هلك في زمان صغار التابعين.. وقد زرع شراً عظيماً، كان يقضي في عسكر الحارث بن سريج الخارج على أمراء خراسان.

(٤) - سعد الدين تأتي ترجمته.

(٥) - في (أ): جمعه من الحواشي.

أحد شيئين أو يأكل أحد مأكولين، أحدهما في غاية المرارة والعفونة، والآخر في غاية الحلاوة والطيب، لرأيته يسرع لتناول ما وقع عليه اختياره وما استحلاه واستطيبه، ومثل هذا غني عن الشرح، ولولا أن الإنسان مختار متمكن من أفعاله لما كلفه الله تعالى، لم يكلف الأحجار، والحيوانات بالعبادة كالجهاد والحج، والصلاة والصوم، فمدار صحة التكليف على الاختيار: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾[1] ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها**﴾[2] ﴿**فمن كفر فعليه كفره، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً**﴾[3] ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾[4] وينزهون الله عن تكليف ما لا يطاق كما يلزم من نفي الاختيار.

والقائلون بالجبر جحدوا هذا كله، وكابروا عقولهم وقالوا: إن العبد ليس متمكناً من أفعاله، ولا توقف لها على تأثيره، بل أنه لا يقدر على تأثير، ولا على فعل ولا حركة ولا سكون[5]، وأن الله هو المحرك المسكن، فجميع الكفر والفجور والفواحش منه تعالى عن ذلك، وذلك لأنه لا قادر ولا فاعل إلا الله، وإلا لزم الشرك بزعمهم، ولا يقع في ملكه ما لا يريده، وإلا لزم العجز على اعتقادهم الفارغ، حتى سمعناهم يقولون: الثنوية أثبتوا لله ثانياً لا غير، والمعتزلة أثبتوا ثانياً وثالثاً ورابعاً إلى ما لا يحصى، وكل هذا من الخداع للأتباع.

ونحن قد جعلنا سببهم في مقابلة الضرورة كما ذكرناه فلا يستحقون منا الجواب، ومع التنزل نبرهن على بطلان مذهبهم بما تقبله العقول، ونكشف

---

(١) ـ البقرة (٢٨٦).

(٢) ـ الطلاق (٧).

(٣) ـ فاطر (٣٩).

(٤) ـ محمد

(٥) ـ في (أ): ولا على سكون.

عواره للناظر، فنقول في إبطال التلازم الأول، وهو قولهـم: لا قـادر إلا الله وإلا لزم الشرك بثبوت قادرين، قد اعترفتم بأن صفات الله تعالى مشتركة في القـدم، ولا مزيَّة لصفة على أخرى، فالقدرة والعلم، والحياة، والوجود، كلها مستويةٌ في كونها صفات قديمة، فما بالكم خصصتم صفة القدرة من بين هـذه الصفـات؟ وقد لزم على كلامم هذا أنه لا يكون أحـد حيـاً إلا الله، ولا موجـوداً إلا الله، ولا عالماً إلا الله، وإلا لزم الشرك، فيلزم أن هذا العالم غير موجود، فيكون خطـاب الله تعالى لنا خطاباً للمعدومين ولا يصـح تمدحه تعـالى أنـه خلقنـا أوجدنـا ولا أحيانـا، ويلزم انتفاء العلم بكونه واحداً أحداً فرداً صمداً، وجميع هذه العلوم التي نعلمها.

فإن قلتم: علمنا وحياتنا ووجودنا لا تعد شيئاً بالنسبة إلى علمه ووجوده وحياته.

قلنا: كذلك نقـول: قدرتنـا لا تعـد شـيئاً بـالنظر إلى قدرتـه، فمـا معكـم إلا أن تصححوا هـذه الملازمـة الـتي حققتـم فيهـا، وتجـروا علـى مقتضاهـا، فقولـوا لا موجود ولا حي ولا عالم إلا الله، وهو مذهب أوليائكم أهـل وحـدة الوجـود، فلا يكون الوجود مشككاً ولا مشـتركاً بين الواحـد والممكـن، بـل متواطئـاً لا يصدق إلا على الخالق ولا مخلوق أصلاً.

وما يقال في الفـرق بـين القـدرة وسـائر الصفـات بـأن القـدرة لهـا مزيـة التعلـق بالمقدورات فليس بشيء إذ العلم كذلك متعلق بالمعلومات، وكون تعلق القـدرة تعلق تأثير ليس معناه إلا صلاحية التأثير، ولا يقتضي هذا مزيـة لهـا علـى العلـم، مع أن العلـم يتعلـق بمـا لا تتعلـق بـه القـدرة كالممتنعـات، فلـو ادعـي أن للعلـم اختصاصاً زائداً على القدرة لما كان بعيداً.ولعمري أنهم يعرفـون أن بـاطن هـذه الملازمة باطل، وظاهرها مموه عاطل.

لقد أباحك غشاً في معاملة من كنت منه بغير الصدق تنتفع

وأما ما يذيلونها به من قولهم: لا خالق إلا الله لقوله تعالى﴿ **هل من خلق غير الله**﴾[1].

فنحن أحق بالتصديق بهذه الآية الكريمة منهم[2]، والقول بمقتضاها، ولكن لا نفسر الخلق إلا بمعناه في اللغة، وهو الاختراع لإيجاد الذوات، كالأحجار والأشجار، والشموس والأقمار، وجميع الجوهريات والعرضيات، ولا نستثني من العرضيات، إلا أفعالنا المخصوصة، الواقفة ببرهان العقل على دواعينا وصوارفنا، ولا ندعي أن لنا قدرة على إيجاد شيء غير ذلك، والآيات الدالة على نفي خالق سواه تعالى، إنما جاءت في مقامات التنبيه والإيقاظ على أن جميع ما نراه من الموجودات مخلوق له، وأن الشمس والقمر من جملة ما هو مخلوق نعمةٌ منه تعالى لعباده، الشمس، والقمر، والحجر، والعجل، ونحو ذلك، وحثّاً على اختصاصه تعالى بالعبادة والربوبية دون كل مخلوق له تعالى، لا احتجاجاً لعباد غيره، واعتذاراً لهم، وهذا أمر لا خفاء فيه.

وأمَّا قولهم: إنا ندعي صحة إطلاق الخلق على فعل غيره تعالى، فنقول لمن صلى: خلق فلان صلاته، ولمن مشى: خلق فلان مشيه، ولمن نكح: خلق نكاحه.

فهذا افتراء علينا وعلى أهل اللغة، بل وعلى عرف الشرع، إذ لا يقولون: خلق الله مشي فلان، ولا خَلَقَ قيامَهُ وقعوده. فإذا اختلقوا علينا وعلى أهل اللغة هذا الاختلاف، وحكموا[3] بأنه يسمى غير الله بالخلاّق.

قلنا لهم: هذا من أفككم، واختلاقكم المبين، ﴿**أتخلقون إفكاً وتذرون أحسن الخالقين**﴾.

---

(١) - فاطر (٣).

(٢) - في (أ) : ساقط (منهم).

(٣) - في (ا): وزعموا.